دلالة ظروف الجهات السِّت في النحو العربيّ
مقاربة لسانيّة إدراكيّة

د. إبراهيم بن سليمان بن اللاحم(*)

المقدّمة:

شهدَ الدرسُ اللساني تطورًا كبيرًا في البحث الدلالي، ولم يعُد اللسانيون يقابلون بين الدلالة ومستويات النظام اللغوي الصوتي والصرفي والنحوي والتداولي، بل أصبحت الدلالة مبحثًا أساسيًا يغطي جميع مستويات النظام اللغوي، واهتم االلسانيون بدراسة تشكلات الدلالة في النظام اللغوي. واعتمدوا في ذلك على خلفيات وتصورات فلسفية مختلفة. ومن ذلك التصور الإدراكي الذي أعاد دراسة اللغة، وركّز على عملية استقبال الذهن للغة وآلية معالجته لها.

وقد أعادت الإدراكية دراسة الظروف ولاسيما ظروف الجهات السِّت، وهي: (أمام وخلف، ويمين وشمال، وفوق وتحت)(١)، وركزت على التصوّرات الاستعاريّة القائمة على "الاتّجاه الفضائيّ" والمُصطلح عليها بـ"الاستعارات الاتّجاهيّة" (Orientational metaphors)(٢).

(*) أستاذ مشارك في اللغة والنحو بقسم اللغة العربية وآدابها في كلية اللغات والعلوم الإنسانية – جامعة القصيم – المملكة العربية السعودية.

(١) – ومثلها : قدام ووراء، ويمين ويسار.

(٢) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسن، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ٢٠١٨، ص ٣٩.

وتقلّصت الدلالة على الظرفيّة وتضخّمت الدلالة على "تصوّرات العلاقات الفضائيّة"[١]. وهذه العلاقات لا تنشأ من طبيعة العلاقة الموجودة بين الأشياء في العالم الموضوعيّ، وإنّما تنشأ من أجسادنا وأدمغتنا وأجهزتنا الحسّيّة والحركيّة، وتخضع لعمليّة الإسقاط (Projection). وهي مؤسّسة على الجسد، في إطار ما يُعرف بالتجسيد (Embodied)، وقد اصطُلح على ذلك بـ"التجسيد الفينومينولوجيّ"[٢].

وقد درس النحويون دلالة ظروف الجهات السِّت ووضعوا خصائصها الدلالية وصنّفوها من مبهمات المكان والمسافة معًا، وهي عندهم تشترك في الدلالة على الظرفيّة المكانيّة. ولم يقصُر النحويون دلالة ظروف الجهات السِّت على الدلالة الظرفيّة فقط، بل نجد بعض المعالجات الدّالّة على ارتباط تلك الظروف بالجسد، وعلى الاتّجاه الفضائيّ والعلاقات الفضائيّة.

وسيستثمر هذا البحث المفاهيم والتصورات الإدراكية في دراسة ظروف الجهات السِّت، معتمدًا المنهج الوصفي التحليلي، خاصة أن الباحث لم يعثر على دراسات سابقة تناولت ظروف الجهات السِّت من منظور إدراكيّ. وسيسعى البحث إلى إعادة قراءة دلالة ظروف الجهات السِّت في النحو العربي، ويروم اكتشاف البعد الإدراكيّ فيها، ومدى وعي النحويين بما تحيل عليه تلك الظروف من دلالة على بعض العلاقات الفضائيّة وكيفيّة ارتباطها بجسد المدرك.

ويقتضي تحقيق ذلك الانطلاق من بيان الخلفيات الفلسفية للسانيات الإدراكية في تصور علاقة ظروف الجهات السِّت بالجسد، ودورها في بناء

---

(١) الفلسفة في الجسد؛ الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، جورج لايكوف ومارك جونسون، ترجمة وتقديم عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط ١، بيروت، ٢٠١٦، ص ٧١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٨-٧٩.

العلاقات الفضائيّة. ثم دراسة دلالة هذه الظروف في إطار تلك التصوّرات، ثم دراسة دلالتها في النحو العربي، ثم بيان البعد الإدراكي فيها.

١– المنطلقات الفلسفية لظروف الجهات السِّت في اللسانيّات الإدراكيّة:

اعتمدت اللسانيات الإدراكية في دراسة الظروف والتراكيب الدالّة على المكان والعلاقات الفضائيّة ومنها ظروف الجهات السِّت على مبدأ الإسقاط، وذلك لأجل تحديد العلاقات الفضائية بين الأشياء، فإدراك الأشياء، وهي في علاقات فضائيّة، يقتضي "إسقاطا خياليّا يرتكز على طبيعتنا المجسّدة ويتأسّس عليها"(١). ويرتبط مبدأ الإسقاط وكذا العلاقات الفضائية بتصوّريْن علميّيْن، هما نظريّة التجسيد، والاستعارة الاتّجاهيّة.

١–١– نظريّة التجسيد:

تعد نظرية التجسيد إحدى نظريات الفلسفة التجريبية التي ظهرت في مقابل الفلسفة الموضوعية، فالفلسفة الموضوعيّة تفصل بين ثنائيّة الإدراك والتصوّر، وتقرّ بأنّ الإدراك جسديّ، وأن التصوّر ذهنيّ خالص، ومنفصل عن الإدراك والحركة. وترى أن الواقع موجود وجودًا مستقلّا عن أجسادنا وأذهاننا، وبناء على ذلك فالمفاهيم والتصورات تنشأ مستقلة عن واقعنا وأجسادنا وأذهاننا، وهي انعكاس للواقع الخارجيّ. وما يوجد في أذهاننا هو مجرّد رموز من كلام وتمثيلات، إن تطابقت مع الواقع فهي صحيحة وإن لم تتطابق فهي غير صحيحة. ولهذا فإن الجسد مجرّد "أداة بيولوجيّة تحاكي أنماطا من الفكر المتعالي. وهو فوق ذلك يفرض بحكم طبيعته حدودًا على المفاهيم والفكر"(٢).

---

(١) الفلسفة في الجسد؛ الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، جورج لايكوف ومارك جونسون، ص ٧٦.

(٢) نظريات لسانيّة عرفنية، الأزهر الزنّاد، الدار العربيّة للعلوم ناشرون ودار محمّد علي للنشر ومنشورات الاختلاف، ٢٠١٠، ص ١٨٤.

وأمّا الفلسفة التجريبية فترى أنه لا وجود لإدراك مستقلّ تمامًا عن قدراتنا الجسديّة، أي عن الإدراك والنشاط الحسّي الحركيّ، والتفاعل مع المحيط الفيزيائيّ والثقافيّ. وهي لا تعد المفاهيم والتصورات انعكاسًا للواقع، وإنّما تتشكّل بواسطة أذهاننا وأجسادنا وأجهزتنا الحسّيّة الحركيّة وتفاعلنا مع الواقع الفيزيائي المحيط بنا. ولهذا تحوّلت مكانة الجسد في التفكير الإدراكيّ أو الفلسفة التجريبيّة إلى أداة تمكّن من التفكير. وصارت التصوّرات والمفاهيم كيانات متجسّدة. وأصبحت اللغة تعكس تجاربنا الحسيّة وتتفاعل مع العالم، وينشأ من هذا التفاعل فهمنا للعالم. فـ"إحساسنا بالواقع (بما هو واقع) يبتدئ بأجسادنا ويتوقّف عليها بشكل حاسم، وبخاصّة جهازنا الحسّيّ الحركيّ، الذي يمكّننا من الإدراك ومعالجة الأشياء، وبالبنيات المفصّلة لأذهاننا، التي تشكّل التطوّر والتجربة كليهما"(١).

١-٢- الاستعارة الاتّجاهيّة:

اقترن بنظريّة التجسيد نوع من الاستعارة التصوّريّة هو الاستعارة الاتّجاهيّة. وهي استعارة مرتبطة بالتوجّه الفضائيّ (Spatialization)، لأن أغلبها يرتبط بالاتجاه الفضائي: أمام- وراء- فوق- تحت- خارج- داخل- وسط- جنب...، مثل: السعادة فوق، والشقاء تحت. وتتعلّق هذه الاتّجاهات بطريقة عمل الجسد في محيطه الفيزيائيّ والاجتماعيّ والثقافيّ. وتستمدّ الاستعارة الاتّجاهيّة أسسها من التجارب الفيزيائيّة والاجتماعيّة والثقافيّة. ولكنّها "قد تختلف من مجموعة ثقافيّة إلى أخرى"(٢) .

وترتّب على التجسيد الفينومينولوجي من خلال نظرية التجسيد والاستعارات التصوّريّة "التوجّه أنا أوّلا"(٣). فكلّ إنسان ينتمي إلى مجموعة لسانيّة

(١) لايكوف وجونسون، ٢٠١٦، ص ٥٤.

(٢) لايكوف وجونسون، ٢٠١٨، ص ٣٩.

(٣) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسن، ص، ١٥٩.

وثقافيّة ما. وبذلك فهو ينتمي إلى النسق التصوّريّ أو النظام المفهوميّ الذي تعتمده تلك المجموعة. والنسق التصوّريّ أو النظام المفهوميّ هو الطريقة التي ينظّم بها الذهن المعرفة عن العالم، فتُنظّم تلك المعرفة في شكل تصوّرات ومفاهيم، تكوّن مع بعضها نسقًا تصوّريّا، كتصوّر الجدالِ حرباً، وتصوّر الغضب نار ناراً.

ورغم انتماء الإنسان إلى نَسقٍ تصوّريّ لمجموعة ما، فإنّه يشكّل من ذاته مرجعًا بالنسبة إلى أغلب التصوّرات، بالنظر إلى مشابهتها أو عدم مشابهتها لخصائصه. فكلّ "متكلّم هو عند نفسه محور العالم، فذاته ومكانه وزمانه هي المرجعيّات العرفانيّة التي تحدّد وجود الأشياء وطريقة كلامه عليها"(١). ويستجيب ذلك للتوجّه "أنا أوّلا". فالإنسان يتفاعل مع الأشياء من حوله ويدركها انطلاقًا من حضوره الجسديّ في المكان والزمان. فمكان الإدراك، وزمانه، ومسافته، وطريقته، وزاويته كلّ هذه الأمور هي التي تحدّد طبيعة فهم الشيء المُدرَك(٢).

فنظرية التجسيد والاستعارة الاتجاهية هما من أهمّ الخلفيات الفلسفية التي اعتمدت عليها الإدراكية في تصورها للغة بشكل عام وللظروف بشكل خاص، وكان لهما تأثير بالغ في كيفيّة التعامل مع الظروف. فلم يعد الظرف إطارًا مكانيّا أو زمانيّا فحسب، بل صار أداةً من أدواتِ الإدراكِ، وآليّةً من آلياتِ التفكير.

١–٣– ظروف الجهات السِّت وتصوّرات العلاقات الفضائيّة:

اكتسبت ظروف الجهات السِّت معاني جديدة في اللسانيّات الإدراكيّة بعد ارتباطها بالجسد، واشتغالها عن طريق الإسقاط. فصارت مصدرًا من مصادر

(١) عبد الله صولة، أثر نظريّة الطراز الأصليّة في دراسة المعنى، حوليّات الجامعة التونسيّة، ع ٤٥، ٢٠٠١، ص ٢٧٩.

(٢) دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، محمد الصالح البوعمراني، مكتبة علاء الدين، ط ١، صفاقس، ٢٠٠٩، ص ١٠٨–١٠٩.

تصوّرات العلاقات الفضائيّة. وتختلف دلالة تلك الظروف باختلاف عمليّة الإسقاط، التي تختلف باختلاف الموقع الذي يكون فيه المدرك، أو باختلاف المركز الذي سيكون عماد عمليّة الإسقاط. ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع أو مظاهر للإسقاط، على الأقلّ:

١-٣-١- **موقع المُدرك:** يتحقق هذا النوع من أنواع الإسقاط بإسقاط الشَّخص المدرك لظروف الجهات السِّت على الأشياء من حوله لتحديد العلاقات الفضائيّة بينه وبين هذه الأشياء انطلاقًا من موقع جسده. ويمكن توضيح ذلك بالمثال الآتي: يوجد الشخصُ المُدْرِكُ في مشهد طبيعي يتكون من (شجرة وعصفور طائر) مع ملاحظة أنَّ الشجرة مَعْلَمٌ ثابت وأنَّ العصفور عابر متحرّك[١]، فكيف ستكون العلاقة الفضائيّة بينهما؟

ستكون العلاقة بين العصفور والشجرة على النحو الآتي: العصفور أمام الشجرة، أو العصفور وراء الشجرة، أو العصفور فوق الشجرة، أو العصفور يمين الشجرة، أو العصفور شمال الشجرة، أو العصفور تحت الشجرة. فإذا وُجد العصفور في جهة الشجرة المقابلة لجسدك، ستقول العصفور أمام الشجرة. وإذا وُجد العصفور في جهة الشجرة غير المقابلة لجسدك، ستقول العصفور وراء الشجرة. وإذا وُجد العصفور في جهة الشجرة المقابلة ليمين جسدك ستقول العصفور يمين الشجرة، وإذا وُجد العصفور في جهة الشجرة المقابلة شمال جسدك، ستقول العصفور شمال الشجرة. وإذا وُجد العصفور في أعلى الشجرة ستقول العصفور فوق الشجرة أو الشجرة تحت العصفور.

والسؤال هنا من أين جاء الأمام والوراء والفوق والتحت واليمين والشمال؟ إنّ هذه الجهات لا توجد في الواقع، ولا يمكن إدراكها بأيّ حاسّة من حواسّ

(١) الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، جورج لايكوف ومارك جونسون، ص، ٧٢.

الإدراك. فهي توجد في أذهاننا فقط. ونحن من يسقطها على الأشياء من حولنا انطلاقا من موقع أجسادنا. فالشجرة من حيث هي معلم طبيعيّ ثابت ليس لها أمام أو وراء أو يمين أو شمال أو فوق أو تحت. وبناء على ذلك فإنّ العلاقات الفضائيّة بين الشجرة (الثابتة) والعصفور (المتحرك) لا وجود لها في العالم الخارجيّ الموضوعيّ، ولا تظهر في حقلنا البصريّ، وإنّما هي توجد في ذهن الشخص المدرك، وقد أسقطها على الأشياء من حوله انطلاقًا من موقع جسده لتحديد العلاقة الفضائيّة بين الأشياء في الواقع الموضوعيّ.

١-٣-٢- جهة التفاعل: يرتكز الإسقاط في هذا النوع على الخصائص التفاعليّة في الشيء المراد إدخاله في علاقات فضائيّة. ويمكن توضيح ذلك انطلاقًا من المثال الآتي: يوجد الشخص المدرِكُ في مشهد يتكوّن من صندوق وكتاب. فكيف ستكون العلاقة الفضائيّة بينهما؟

سوف يتاح لنا من العلاقة بين الصندوق والكتاب ما يأتي: الكتاب أمام الصندوق أو الكتاب وراء الصندوق أو الكتاب فوق الصندوق أو الكتاب تحت الصندوق أو الكتاب يمين الصندوق أو الكتاب شمال الصندوق. والسؤال هنا من أين جاءت هذه العلاقات الفضائيّة ذات الجهات السِّت؟

لم تُبنَ العلاقات الفضائيّة في هذا المثال انطلاقًا من موقع الشخص المدرك، وإنّما انطلاقًا من الخصائص التفاعليّة للصندوق. فللصندوق باب نتفاعل معه في إدخال الأشياء فيه أو إخراجها. والجهة التي فيها الباب تشكّل الأمام بالنسبة إلى الصندوق؛ لأنّ الأمامات في محيط الإنسان الفيزيائيّ والثقافيّ تقترن بالجهة التي تسمح له بالتفاعل[١]. فأمام المرآة هي الجهة التي نتفاعل معها ونشاهد ما تعكسه، وأمام السيارة هي الجهة التي ينظر إليها السائق أثناء القيادة، وأمام قاعة الدرس هي الجهة التي يجلس فيها المعلم. وبناء على ذلك فإنّ هذه الجهات السِّت لا

(١) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسن، ص ١٣٠.

توجد في الواقع الفيزيائيّ، وإنّما يُسقطها الإنسان اعتمادًا على "نسقه الحسّيّ الحركيّ"[1]، وتفاعله الجسديّ مع الأشياء من حوله.

١-٣-٣- موقع المركز: يرتكز الإسقاط في هذا النوع على مركز ما. ويمكن توضيح ذلك انطلاقًا من المثال الآتي: القصيم شمال الرياض والدمام أمام الرياض.

تمثّل الرياض في هذا المثال المركز والعاصمة الإدارية للمملكة. وبناء على ذلك فإنّ العلاقات الفضائيّة تتشكّل اعتمادًا على هذا المركز. وتتقاطع الرياض من حيث هي مركز إداري مع جهة الشرق من حيث هي مركز شروق الشمس. فأمام الرياض هو الجهة المقابلة لشروق الشمس. فيكون القصيم شمال الرياض، والدمام أمامها. وليس للرياض يمين أو شمال، أو أمام أو وراء، وإنّما الإنسان هو الذي أسقط هذه الجهات على المركز انطلاقًا من جسده.

يتضح لنا مما سبق أنّ دلالة ظروف الجهات السِّت في التصور الإدراكي مؤسسة على أجسادِنا، وهي لا توجد في الواقع وليست كيانًا في الحقل البصريّ، وإنّما هي توجد فقط في ذهن الإنسان وتتشكل فيه، وتستمدّ معناها انطلاقًا من ارتباطها بالجسد وأجهزته الحسّيّة الحركيّة، وكيفيّة إسقاطها لبناءِ علاقات فضائيّة بين الأشياء في الواقع الموضوعيّ.

وفي ضوء هذا التصوّر الإدراكيّ لظروف الجهات السِّت، نطرح السؤال عن دلالة ظروف الجهات السِّت في النحو العربي، وهل كان هذا التصوّر في اللسانيّات الإدراكيّة حاضرًا عند النحويين وهم يضعون الخصائص الدلالية لظروف الجهات السِّت؟

---

(١) الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، جورج لايكوف ومارك جونسون، ص، ٦١.

٢– دلالة ظروف الجهات السِّت في النحو العربي:

تدلّ الظروف عند النحويين ومنها ظروف الجهات السِّت على الظرفية في أصل وضعها اللغوي. فالظرفيّة تنشأ من داخل الظرف ذاته، ولذلك قال ابن جنّي عن الظرف بنوعيه "يُرادُ فيه معنى (في)، وليست في لفظه كقولك: قمت اليومَ، وجلست مكانَك، لأن معناه: قمت في اليوم، وجلست في مكانك"(١). وقد بيَّن النحويون دلالة ظروف الجهات في سياقات مختلفة ومواضع متفرقة، ويمكن أن نجملها في ثلاثة جوانب:

أ– الإبهام في ظروف الجهات السِّت:

قسَّم النحويون ظروف المكان من جهة الدلالة إلى قسمين، مختصّ ومبهم، فالمختصّ ما له حدّ ونهاية، كالدّار والمسجد، قال السيرافي: "ألا ترى أنَّ المسجدَ اسم لبقعة ما، على صورة من الصور، إذا بطلت بطل أن تكون مسجدًا، وكذلك الدار والحمّام، والجبل"(٢). وأمّا المبهم فهو ما ليس له جهة تحصره ولا أقطار تحيط به، ولم يرتض ابن الحاجب هذا التعريف فقال: "وليس قول من قال: إنَّ المبهم هو الذي ليس له أقطار تحيط به ولا نهايات تحصره والمختص عكسه، بمستقيم. فإنه لو قال: جلس في البيت بين يدي، كان ظرفًا مبهمًا، مع كونه له أقطار تحيط به ونهايات تحصره(٣). وأوضح ابن الخباز أن قولهم: (المبهم ما ليس له أقطار تحصره) لا يقصد به النكرة، وإنّما هو مجهول الصورة. ومجهول

(١) اللمع في العربيّة، ابن جنّي، موسوعة الشعر العربيّ، الإصدار ١، ٢٠٠٩، ص ٣٠.

(٢) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، تحقيق أحمد حسن مهدلي وعلي سيّد علي، دار الكتب العلميّة، ج ١، ط ١، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٢٧٠. وانظر. شرح المفصل، ابن يعيش، تقديم الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، ج ٣، ط ١، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٣٩.

(٣) أمالي ابن الحاجب، ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، ج ٢، دار عمار ، الأردن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩، ص ٥٦٧.

الصورة؛ يشمل الجهات السِّت والميل والكيلو ونحوها[١]، ولهذا جعل النحويون ظرف المكان في ثلاثة أقسام:

- **مجهول القدر والصورة:** وهي ظروف الجهات السِّت وما حُمِلَ عليها. وهو أشدّها إبهامًا.
- **معلوم القدر مجهول الصورة:** مثل الفرسخ والميل والكيلو.
- **معلوم القدر والصورة:** كالدار والمسجد[٢].

ويفسر السيرافي الإبهام في الجهات السِّت بعدم الاختصاص بمكان دون مكان، قال: "وذلك أنَّه لا شيء من المكان إلا وهو يصلح أن يكون خلفاً لشيء، وقدّامًا لشيء، ويُمنة لشيء، ويُسرة لشيء، وفوقًا لشيء، وتحتًا لشيء"[٣]. ووضّح الإبهام في القدر بأنه لا يبدأ من قرب، ولا يعرف الحد لبدايته ولا نهايته، قال: "لأنّا إذا قلنا: زيد خلف عمرو، فهو مطلوب خلفه من أقرب ما يليه إلى ما لا نهاية له، والبعد لا نهاية له، ولا حدّ لأوله معلوم؛ كعلم حدود الجهات السِّت، ويقويه ويكشفه أنّا إذا قلنا: قربك زيد. طلبه المخاطب فيما قرب منه، وذلك ممكن مفهوم، كما تقول: عندك زيد، وإذا قلنا: خلفك زيد. ابتداء بما يليه من خلفه واستقراره طلبًا له. وإذا قلنا: بعدك زيد، لم يكن ذاك فيه"[٤].

وإبهام الجهات السِّت، وعدم حصول الفائدة فيها إذا كانت نكرة، جعلا النحويين يوجبون فيها الإضافة، قال المبرّدُ: "إنّما لزمت هذه الظروفُ الإضافةَ لعدمِ إفادتها مفردةً، ألا ترى أنّك إذا قلت: "جلستُ خلفًا"، فالمخاطبُ يعلم أنّ كلَّ

(١) توجيه اللمع، ابن الخباز، دراسة وتحقيق، فايز زكي محمد دياب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٩٢.

(٢) توجيه اللمع، ابن الخباز، ص ١٩٢.

(٣) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، ص ٢٧٠.

(٤)المرجع نفسه، ص ٤٧١.

مكان لا بدّ أن يكون خلفًا لشيء، فإذا أضفتَه، عُرف، وحصل منه فائدةٌ"[١]. فبدون الإضافة لا يتحدد هل الفوق أو التحت ونحوهما لزيد أو لبكر أو للمنزل أو للكتاب أو غير ذلك.

فالنحويون ضبطوا الجهات السِّت دلاليًا بأنَّها مبهمة، أي مجهولة الصورة ليس لها جهة أو شكل يحصرها، وهي أيضًا مجهولة القدر، أي ليس لها حدود تحيط بها ولا بدايات أو نهايات تحدها. ويفرق النحويون بين المبهم والنكرة، فالجهات السِّت مبهمة دائمًا، وتأتي نكرة وهو الأصل وتتعرّف بالإضافة[٢]، ولا يزول الإبهام بتعريفها وإنّما تتحقق الجهة وتتحدد، فالمبهم لا يقابل النكرة عندهم؛ لأن المبهم يخص القدر (المسافة)، والتنكير يخص التعيين، فعندما تُدخل التعريف على (يمين) فتقول: النار يمين زيد، فـ(يمين) تعرَّفت، ولكن إبهام المسافة بين زيد والنار باق.

ب– التنقل والنسبية في ظروف الجهات السِّت:

شبه ابن الخباز ظروف الجهات السِّت بظروف الزمان من جهة أنَّها تتصف بصفة التنقل، وهو يقصد عدم ثباتها على اتجاه أو علاقة واحدة، قال: " فهذه ظروف، وذلك لأنها أشبهت الزمان من وجهين: الأول: أنها تنتقل، ألا ترى أن خلفك يكون أمامك، لأنه كان خلفك حين استدبرته، فصار أمامك حين استقبلته، كالزمان يكون مستقبلًا، والمستقبل، يصير حالًا، والحال يصير ماضيًا؟"[٣]

(١) نقله ابن يعيش في شرح المفصل عن المبرد، تقديم الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، ج ٣، ط ١، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٤٠.

(٢) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، ص ٣٠٢.

(٣)توجيه اللمع، ابن الخباز، ص ١٩٢.

ووصف ابن يعيش العلاقة الفضائية لهذه الظروف بأنها نسبية، وهو يقصد أيضا معنى قريب من التنقل وهو عدم الثبات، قال: "فإنّ "فَوْقًا" يكون بالنسْبة إلى شيءٍ فَوْقًا، و"تحتًا" بالنسبة إلى شيءٍ آخرَ، وكذلك "أَمام" وسائرُها".(١) "فمكان الجهات السِّت غير معين لعدم لزومها بقعة بخصوصها، لأنها أمور اعتبارية أي: باعتبار الكائن في المكان، فقد يكون خلفك أماماً لغيرك، وقد تتحول فينعكس الأمر. وهكذا مقدارها أي مسافتها ليس له أمد معلوم. فخلفك مثلاً اسم لما وراء ظهرك إلى ما لا نهاية"(٢).

ج- ملازمة ظروف الجهات السِّت للظرفية:

تستعمل ظروف الجهات السِّت في أصل وضعها ظروفًا للمكان، وقد تستعمل ظروفًا للزمان، وقد أطلق النحويون عليها أوصافًا متعددة، مثل: ملازمة الظرفية، والتمكن في الظرفية، وعدم التصرف، وكلها تدلّ على أنَّ الجهات السِّت لا تستعمل إلا ظروفًا. ولكنهم أجازوا في نطاق ضيّق خروجها عن الظرفية، كأن تخرج عن الظرفية فتستعمل اسمًا، قال سيبويه: "وأمّا الخَلف والأَمام والتَّحْت فهنّ أقلُّ استعمالاً في الكلام أن تُجْعَل أسماءً"(٣). وقال: "كما يجوز لك أن تقول :عبدُ الله خَلْفُك، إذا جعلتَه هو الخَلْفَ"(٤).

ويمكن أن نُجمل الخصائص الدلالية التي وضعها النحويون لظروف الجهات السِّت فيما يأتي:

---

(١) شرح المفصل، ابن يعيش، ص ١٣٩.

(٢) جامع الدروس العربيّة، مصطفى الغلاييني، موسوعة الشعر العربي، الإصدار ١، ٢٠٠٩، ص ٥٥٧.

(٣) الكتاب، سيبويه، ج ١، ص ٤١١.

(٤) الكتاب، سيبويه، ج ١، ص ٤١٦. وانظر، حروف المعاني والصفات، الزجاجي، موسوعة الشعر العربي، الإصدار ١، ٢٠٠٩، ص-ص ٢٤-٢٥.

١– الإبهام، أي ليس لها صورة تمثلها ولا حدود معروفة لبدايتها أو نهايتها.

٢– التنقل والنسبية، وهما عدم ثبات الجهة واختلافها بحسب مكان المدرك.

٣– تصلح لأي مكان ولا تختص بمكان دون مكان.

٤– لا تستعمل إلا معرفة بالإضافة، وتعريفها لا يزيل الإبهام فيها وإنَّما يحدد الجهة فقط.

٥– تَمَحُّضُ دلالتها على الظرفية إلا نادرًا، كأن تخرج عن الظرفية إلى الاسمية.

٣– الأبعاد الإدراكيّة في ظروف الجهات السِّت في التفكير النحوي العربيّ:

نلحظ في معالجة النحويين السابقة لدلالة ظروف الجهات السِّت بُعدًا إدراكيًا، يظهر في جانبين:

١ – في معنى الانتقال والنسبية اللذين وصفوا بها ظروف الجهات السِّت إشارة إلى أنها ليست كيانات موجودة بشكل ثابت في الواقع الموضوعيّ، بل هي تختلف من مدرك إلى آخر بناء على موقعه الجسديّ. "وذلك أنه لا شيء من المكان إلا وهو يصلح أن يكون خلفاً لشيء، وقدّامًا لشيءٍ، ويمنة لشيء، ويسرة لشيء، وفوقًا لشيء، وتحتًا لشيء"(١). وفي هذا إشارة إلى مفهوم التجسيد كما تبلور في اللسانيات الإدراكية.

٢– مبدأ الإسقاط لظروف الجهات السِّت على الأشياء في الواقع الفيزيائي لتوضيح العلاقات الفضائية. وقد اقتصر النحويون على نوع واحد من الإسقاط، وهو الإسقاط على موقع جسد المدرك. فالسيرافي كما سبق اعتمد على موقع جسد المدرك للتمييز بين دلالات الظروف، قائلا: "ألا ترى أنك إذا قلت: زيد خلفك عُلِمَ أنَّه ليس قدّامه ولا تحته ولا فوقه ولا يمنته ولا يسرته مع وجود هذه الأماكن، ففي

(١) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، ص ٢٧٠.

إفراد الجثة بمكان فائدة"[١]. فالخلف والقدّام والتحت والفوق واليمنة واليسرة –حسب السيرافي– تتحدّد حسب موقع جسد المدرك.

وانطلق ابن الخباز في بيان دلالة الجهات السِّت من جسد المُدرك وإن لم يصرح بذلك قائلا: "المكان ثلاثة أقسام: الأوّل المجهول القدر والصورة كالجهات السِّت التي لا بدّ لكلّ متحيّز منها، وهي خلف وأمام وفوق وتحت ويمين وشمال... ألا ترى أنّ خلفك يكون أمامك لأنّه كان خلفك حين استدبرته فصار أمامك حين استقبلته"[٢]. فـ"المتحيّز" يشمل كلّ جسم من الجماد والنبات والحيوان والإنسان. ثم خصّ ابن الخباز الإنسان بالخطاب. فحركة جسده هي التي تحدّد الأمامات والواراءات. وفي ذلك وعي بإسقاط العلاقات الفضائيّة على الأشياء في العالم الموضوعيّ انطلاقًا من موقع الجسد أو جسد المدرك.

وانطلق الجرجاني أيضًا في بيان دلالة ظروف الجهات السِّت من مركزيّة الجسد في الإدراك. قائلا: "ألا ترى أنّك إذا قلت: خلف زيد، كان غير محصور، وكان هذا اللفظ واقعًا على جميع ما يقابل ظهره إلى أن تنقطع الأرض. وكذا إذا قلت: أمام زيد وتحت زيد وفوق زيد، لم يكن لشيء من ذلك غاية... ألا ترى أنّ الخلف يصير أمامًا واليمنة يسرة والتحت فوقًا"[٣]. فتلك الجهات تمتدّ من مكان وجود جسد المدرك إلى ما لا نهاية، فتكون مبهمة غير مخصوصة لأنّ المدارك الحسّيّة لدى الإنسان غير قادرة على إدراكها وتخصيصها. ثم هي تتحدّد حسب موقع جسد المدرك، فالأمام هي ما كان أمام الجسد، والوراء هي ما كان وراءه.

---

(١) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، ص ٣٠٢.

(٢) شرح كتاب اللمع، ابن الخباز، ص ١٩٢.

(٣) كتاب المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، ج ١، بغداد، ١٩٨٢، ص ٦٤٢.

يتضح من خلال هذه الشواهد أنَّ النحويين أبانوا عن دلالة الجهات السِّت مع تضمين ذلك بعض الإشارات الإدراكية، تتمثل في تطبيق مبدأ الإسقاط على جسد المدرك، وفي الانتقال والنسبية اللذين يدلان على مفهوم التجسيد وأن هذه الجهات متنقلة وتحديدها أمر نسبي، وليست كيانات موجودة ثابتة في الواقع الفيزيائي.

وينبغي أن ننبه إلى هذا لا يعني القول بالتطابق التام بين التراث والتصورات الإدراكية، أو قصد بيان السبق أو أنَّ هذه المبادئ منتظمة وفق نظرية أو منوال عام أو جاءت مصرحًا بها في موضع واحد، بل هي تصورات أبانت عن الخلفية الإدراكية في تفكيرهم النحويّ. مع قصور آلتهم الاصطلاحيّة عن إجراء بعض المصطلحات المحيلة على الإدراك ومركزيّة الجسد والعلاقات الفضائيّة. ولهذا نرى أهمية صياغة دلالة الجهات السِّت وفق التصور الإدراكي والإفادة منها في تطوير دلالتها، وبيان كيفيّة إحالتها على العلاقات الفضائيّة. فإذا كانت ظروف الجهات عند النحويين تتميّز بالإبهام والانتقال وملازمة الظرفيّة، فإنّها كذلك تعتمد على خاصّية أخرى مهمة هي التجسيد، لكون الظرف يرتبط ارتباطًا مباشرًا بجسد المدرك، فلا قيمة للأمامات أو الوراءات إلّا في علاقتها بجسد المدرك، بل إنّ جميع العلاقات الفضائيّة تتحدّد بناء على موقع جسد المدرك.

الخاتمة:

يتبيّن ممّا سلف أنّ الظروف ولا سيما ظروف الجهات السِّت قد توسّعت دلالتها في اللسانيّات الإدراكية، وصارت تشكّل تصوّرات للعلاقات الفضائيّة. فالأمامات والوراءات وغيرها من ظروف الجهات السِّت ليست كيانات موجودة في الواقع الخارجيّ مثل سائر الأشياء الفيزيائيّة، بل هي كائنة في النسق الإدراكيّ والتصوّريّ لدى الإنسان ومؤسّسة على جسده.

ويعمد الإنسان إلى إسقاط تلك العلاقات الفضائيّة على الأشياء في محيطه الإدراكيّ، فيسند إليها الأمام والوراء والفوق والتحت وغيرها، اعتمادًا على أجهزته الحسّيّة الإدراكيّة وكيفيّة تفاعله مع أشياء العالم من حوله، وحسب موقعه الجسديّ.

وقد ميَّز النحويون ظروف الجهات السِّت في النحو العربيّ بثلاث خصائص دلالية: تمثّلت الخاصيّة الأولى في الإبهام، وهو ما كان مجهول القدر والصورة. وتمثّلت الخاصّية الثانية في الانتقال والنسبيّة. وأمّا الخاصّية الثالثة فتمثّلت في ملازمة معنى الظرفيّة لظروف الجهات السِّت.

وكان للبعد الإدراكيّ إشارات وخلفيات في تفسير النحويين لدلالة الجهات السِّت تمثل في مظهرين: اتّصل المظهر الأوّل بالانتقال والنسبيّة، ذلك أنّ العلاقات الفضائيّة التي تحيل عليها ظروف الجهات السِّت ليست موجودة في الواقع الفيزيائيّ، بل هي موجودة في ذهن المدرك، وبناء على ذلك فهي تختلف من مدرك إلى آخر. واتّصل المظهر الثاني بالإسقاط لموقع المدرك. فالمدرك هو الذي يُسقط العلاقات الفضائيّة على الأشياء في الواقع الفيزيائيّ انطلاقًا من موقعه.

وظهر لنا أهمية استثمار التصورات الإدراكية في إعادة صياغة دلالة ظروف الجهات السِّت في النحو العربي، وذلك باعتماد مفهوم التجسيد، لكون الظرف يرتبط ارتباطًا مباشرًا بجسد المدرك، ولا يمكن أن تتحدَّد العلاقات الفضائيّة إلا بناء على موقع جسد المدرك.

المصدر والمراجع

– أمالي ابن الحاجب، ابن الحاجب (عثمان)، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩.

– أثر نظريّة الطراز الأصليّة في دراسة المعنى، عبد الله صولة، حوليّات الجامعة التونسيّة، ع ٤٥، ٢٠٠١.

– الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف و مارك جونسن، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠١٨.

– توجيه اللمع ، ابن الخباز دراسة وتحقيق: أ. د. فايز زكي محمد دياب، دار السلام، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م

– الفلسفة في الجسد؛ الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، جورج لايكوف و مارك جونسن، ترجمة وتقديم عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط ١، بيروت، ٢٠١٦.

– الكتاب، سيبويه، تحقيق : عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

– اللمع في العربيّة، ابن جنّي، تحقيق : فائز فارس، دار الكتب الثقافية – الكويت.

– الخصائص، ابن جنّي، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

– جامع الدروس العربيّة، مصطفى الغلاييني، موسوعة الشعر العربي، الإصدار ١، ٢٠٠٩.

– حروف المعاني والصفات، الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م

– دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، محمد الصالح البوعمراني، مكتبة علاء الدين، ط ١، صفاقس، ٢٠٠٩.

– شرح المفصّل، ابن يعيش، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت، ٢٠٠١م.

– كتاب المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٣.

– شرح كتاب سيبويه، السيرافي، تحقيق أحمد حسن مهدلي وعلي سيّد علي، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٨.

– نظريات لسانيّة عرفنية، الأزهر الزنّاد، الدار العربيّة للعلوم ناشرون ودار محمّد علي للنشر ومنشورات الاختلاف، ٢٠١٠

* * *